بسم الله الرحمن الرحيم

ورقة بحثية - الليبراليون العرب والليبرالية الغربية



كل تقليد فكري دون تمحيص يتحول إلى عالة على الفكر

أطروحات الليبرالية العربية عالة على الليبرالية الغربية، بل على إفرازاتها الجانبية وشطحاتها المادية

حررت هذه الورقة البحثية بقلم نبيل شبيب بتاريخ ٢١ / ٣ / ٢٠٠٩م

وهي منشورة لتحميل النص كاملا من الموقع الشخصي محطة إضاءات https://idhaat-station.info/

الليبرالية مذهب فلسفي الولادة، غربي النسب والنشأة والتطوّر، متشعب الميادين التطبيقية، أوجدته ظروف تاريخية، وبدّلته وشعّبته ظروف تاريخية، جميعها مما دار على أرض غربية، ولا يكاد يوجد شيء مما يشابهها في الدائرة الحضارية الإسلامية لتسويغ الأخذ به، وإن وجد فلا يُعالج بغير ما يرتبط بالوعي المعرفي الحضاري والثقافي الذاتي المرتبط بجذورها وبصياغة الإنسان من خلالها وأساليب تفاعله مع ما يُطرح بين يديه.

الليبرالية القديمة

تُنسب الأفكار الأولى لليبراليين الغربيين في الميدان الحقوقي إلى جون لوك الإنجليزي (1632-1704م) في مواجهة السلطات المطلقة للدولة، وفي الميدان الاقتصادي إليه بعد بعض من سبقه من الفلاسفة الغربيين مثل هوجو جروتيوس (1583-1645م) وصاموئيل بوفندورف (1632-1694م)، وفي الميدان السياسي إلى فولتير الفرنسي (1694-1784م) في مواجهة "الإملاءات الكنسية العقدية - دوجما" في عصره، فضلا عن فلاسفة عديدين آخرين، أما كلمة الليبرالية فلم تستخدم إلا عام 1812م في أسبانيا.

أهم الأطروحات من القرنين الميلاديين السابع عشر والثامن عشر، كانت في كتاب جون لوك (مقالتان حول الحكم) عام 1689م، وأهم ما جاء فيهما اعتبار (الحياة والحرية والملكية) الأسس الأولى لحقوق الإنسان، وقد ميّزه عن فكر معاصريه وأسلافه من حقبة "التنوير الأوروبي" من قبل، أنه أدخل عنصر الملكية في هذا الثالوث الفلسفي، وهو مما انبثق عنه ارتباط الليبرالية من بعد بالرأسمالية وليس بالديمقراطية، وقد اعتبر جون لوك الدولة مسؤولة عن حماية الأسس الثلاثة لحقوق الفرد المذكورة، فانطلق الفكر الليبرالي من ذلك المنظور "الفردي" ومن إعطائه الأولوية على ما سواه، فحقوق الإنسان تأخذ بنيتها الهيكلية عبر "الحقوق الفردية الأساسية" التي تحميها الدولة، والتي تحمل واجب إعطائها "الأولوية" تجاه "القرارات الديمقراطية" للغالبية، وهذا ما تضمّن مثلا القول بحماية حقوق الأقليات، مع ملاحظة المفهوم الليبرالي الغربي لتعبير الأقليات، وتركيزه على الجانب الفكري والاجتماعي، ولكن أوصل انحرافه حديثا على سبيل المثال إلى اعتبار الآخر بالممارسة، المخالف فطريا وجنسيا، أقلية تحمل الدولة واجب إصدار التشريعات القانونية لحماية ما يذهبون إليه، سيان هل اقتنعت الغالبية بما يقولون ويصنعون أم لم تقتنع، بل يمكن في هذه الحالة أن تصيب أضرارهم سواهم ولا يؤخذ بأن هذا مسوّغ لحجر ما يصنعون، أو حجر صنعه "علنا" على وجه التحديد، ناهيك عن الامتناع عن دعمه بالتشريعات القانونية.

الرأسمالية ابنة الليبرالية

أصبحت الرأسمالية سريعا أهم الميادين التطبيقية لليبرالية الغربية، ولهذا خلفيته التاريخية أيضا، فمع تطلع الأوروبيين إلى ثروات ما وراء البحار فيما سمّوه "الاكتشافات الجغرافية" وأوصل إلى "الاستغلال الاستعماري" بالقوة، ظهر آدم سميث الاسكوتلندي (١٧٢٣-1790م) الذي يُعتبر مؤسس الرأسمالية وفي المقدمة بين المفكرين "الليبراليين"، وتقوم رأسماليته على مقولة (إن السعي الفردي الأناني يساهم في تحقيق رفاهية المجتمع بمجموعه) كما أوردتها "صيغته الليبرالية" حول مفهوم "اليد غير المرئية" -أي الموجِّهة للسوق الحرة- في مؤلفه تحت عنوان "رفاهية الأمم" (1776م)، وقد حصر سميث أنشطة الدولة في ثلاثة ميادين، وهي الشرطة والجيش والقطاعات التي لا تحقق أرباحا مادية، كرعاية الأيتام والمدارس والمستشفيات، وأفكار سميث هذه كانت ردة فعل (أو ثورة في حينه) على سيطرة الأمراء والإقطاعيين على "السوق" سيطرةً لا تراعي حقوق الأفراد.

ثم أدخل ديفيد ريكاردو الإنجليزي (1772-1823م) عنصر المال في تنظيم الاقتصاد القومي، وتلاه توماس روبرت مالتوس الإنجليزي (1766-1834م) الذي كان من دعواته الامتناع عن دعم الفقراء للحد من النسل بحجة أن النمو السكاني أسرع من نمو الإنتاج الزراعي، وأضاف جان بابتيست سي الفرنسي (1767-1832م) نظرية أن السوق تصحح نفسها بنفسها لحظر تدخل الدولة في قرار الفرد الرأسمالي وإن ارتكب أخطاء ما، ثم كان جون ستيورات ميل الإنجليزي (1806-1873م) أول من دعا إلى تحسين توزيع الثروة متأثرا بما ظهر من مجاعات وفقر في إيرلندا آنذاك، وكان ذلك بداية ما سمي لاحقا "الرأسمالية الاجتماعية".

وتلازمت نشأة الليبرالية الأوروبية مع نشأة القوميات الأوروبية وتحركتا يدا بيد، ثم افترقتا في القرن الميلادي العشرين افتراقا تزامن مع ظهور القوميات الفاشية، ويوجد من الليبراليين من يؤكد بذلك عنصر الحرية في الفكر الليبرالي، ليعلل افتراقه عن القومية بعد انتشار النازية الألمانية والفاشية الإيطالية، أي استفحال ممارسة الاستبداد القومي. إلا أن التطور التاريخي للمجتمعات الرأسمالية باعتبارها أهم تطبيقات الليبرالية، يوحي بنقيض ذلك، أي أن "جنوح" الرأسمالية الليبرالية وشططها، كانا من وراء أفول نجم الفكر القومي في الغرب، فمع الموجة الأكبر الثانية لعولمة الرأسمالية بعد الحركة الاستعمارية الاستغلالية عالميا، وهي ما استُخدم تعبير "الامبريالية" لوصفه، أصبحت القوميات حجر عثرة فيما يسعى إليه الرأسماليون الليبراليون، كفتح الحدود، و"تحرير" الاستثمارات والتجارة.

الليبرالية الجديدة

استُخدم تعبير "الليبرالية الجديدة" لأول مرة عام 1938م في مؤتمر انعقد في باريس، وأول من ابتكره آلكسندر روستوف الألماني (1885-1963م) ثم أصبح في مقدمة من يعبر عنه فريدريك فون حايك النمساوي (1899-1992م)، بالإضافة إلى عدد من مفكري الليبرالية الجديدة الأمريكيين.

هنا أيضا نجد العنصر المادي الكامن في مسيرة الرأسمالية هو المحرك الأول لتطور الطرح الليبرالي، فما سبق طرحه في القرون الماضية انهار على أرض الواقع التطبيقي، وبلغ الانهيار مداه في الأزمة الاقتصادية العالمية في نهاية العشرينات من القرن الميلادي العشرين، وقد قضى على "حرية التجارة" التي صنعتها مسيرة "الليبرالية الاقتصادية" أي صنعتها الرأسمالية في مسيرة عولمتها "الاستعمارية" السابقة.

في ذلك المؤتمر أكد مفكرو الليبرالية الجديدة الغربيون فساد النظريات الأولى القائمة على العلاقة بين حرية الفرد والحدّ من سلطة الدولة، فكان جوهر ما خرج به المؤتمر التأكيد أن (تعاظم السلطان الاقتصادي عبر المؤسسات الاحتكارية أدى إلى قهر هذه السلطة الاقتصادية للسلطة السياسية) ورأوا أنه لم يعد مقبولا اقتصار دور الدولة على "الحارس الليلي" بل عليها (ممارسة سلطتها وصلاحياتها لتثبيت الإطار الذي تتحرك فيه حرية الفرد الاقتصادية ليمكن ضمان سلامة العلاقات في المجتمع المشترك). وأشهر من يمثل هذا الاتجاه ما يعرف بمدرسة فرايبورج الألمانية، ومدرسة شيكاغو الأمريكية، والمدرسة النمساوية وكان مختلفا عليها في بداية نشأتها.

السؤال الملح الذي أصبح يطرح نفسه لاحقا على المستوى الليبرالي بمنظور غربي وعالمي هو:

إذا كان الانهيار الاقتصادي والمالي الجماعي الكبير عام 1929م هو محضن ولادة فكر "الليبرالية الجديدة" على أنقاض فكر "الليبرالية القديمة"، فما الذي سيسفر عنه الانهيار الاقتصادي والمالي الجماعي الكبير عام 2008 و2009م على أنقاض الفكر الليبرالي الرأسمالي الجديد ونتيجة "تعاظم سلطان المال" القاهر للبنية الاقتصادية والسياسية معا؟

ليت الليبراليين العرب يقلدون الليبراليين الغربيين حقا!

صانعو الفكر الليبرالي الغربيون، بمختلف أجنحته السياسية والحقوقية والاقتصادية، لم يتناولوا مباشرة ما يتعلق بما انتشر تحت عنوان الحرية الفردية في الغرب على أصعدة أخرى، مثل حرية العلاقات بين الجنسين أو حتى الجنس الواحد. هذه الأنماط أو الانحرافات من تطبيقات الحرية الفردية، لم تكن "بداية" الحركة الفلسفية والسياسية والاقتصادية ولا بداية "نهضة" أدبية وفكرية وفنية، بل كانت في فترة لاحقة من "الإفرازات" الجانبية لها، ويمكن التأكيد أنها كانت إفرازات من صنع انحرافاتها عبر تحرير طلب المال من الضوابط، فصار من يملك "قوة المال" يوظفها لتوجيه الأذواق والأخلاق والأفكار وراء ما يبتكره من منتجات جديدة، تخالف القيم السائدة، ووراء تشريعات تقنينية تبيحها بعد حظرها وتروّج لها بعد أن كانت مرفوضة ممقوتة.

صحيح أن الإغريق عرفوا فلاسفة المتعة مثل أبيقور (341-270 ق.م) ولكن لم يأخذ بمثل ذلك أعمدة الفلسفة الإغريقية كسقراط وأرسطو وأفلاطون.

صحيح أن الغرب الحديث عرف فلاسفة الوجودية مثل سارتر الفرنسي (1905-1980م) ولكنه ظهر مع ما جنح وأمثاله إليه بعد بداية النهضة الإنسانية الأوروبية بخمسة قرون وبعد بدء الثورة الصناعية بثلاثة قرون.

وصحيح أن الإلحاد أخذ طريقه إلى فلاسفة محدثين غربيين مثل شوبنهاور الألماني (1788-1860م) -إضافة إلى ماركس وهيجل وغيرهما- ولكن هذا الإلحاد وتصوراته الحداثية كالإمبريقية ظهرت بعد أن شق فلاسفة الإنسانية والتنوير طريق النهضة ليس على أساس الإلحاد بل على أساس الدعوة إلى القيم بغض النظر عن تقويمها في هذا الموضع.

المشكلة مع الليبراليين العرب وسواهم من الحداثيين بلسان عربي أو قلم عربي، أنهم:

1- يبدؤون الآن حيث بدأ بعض الغربيين قبل قرون وقرون، وانتهوا منه، وتجاوزوه إلى سواه، بما في ذلك فلسفة القرون الوسطى أثناء الصراع مع الكنيسة.

2- يختارون الآن ما سبق وصفه بالإفرازات الجانبية للمسيرة الفلسفية الغربية ويعطونها مكان الصدارة، كما في مختلف ميادين الانحلال والمتعة باسم الحرية الشخصية.

3- ينحرفون في "تقليد" الغرب انحرافا يضاعف ضرر التقليد، إذ يقلدون الفلاسفة الغربيين شكليا عبر الدعوة إلى مثل ما دعوا إليه دون تفكير، ولا يقلدونهم تقليدا حقيقيا قويما، أي لا ينظرون في المعطيات القائمة في مجتمعاتنا ليبتكروا فكرا جديدا ينبعث من وعيها المعرفي الحضاري الذاتي في حل مشكلاتها، وذاك جوهر ما صنعه فلاسفة الغرب، كل في عصره، بما يناسب عصره ووفق متطلبات مجتمعه، بغض النظر عن تقويم ما وصل إليه.

إن الدعوة إلى الليبرالية القديمة في أوروبا نشأت في محضن حكم كنسي قائم على إملاءات عقدية (دوجماتية) فأين هذا الحكم في بلاد العرب والمسلمين اليوم؟

وإن الدعوة إلى الرأسمالية الليبرالية الغربية صدرت عن حقبة تطوير حركة التقدم الصناعي والتقني السابقة لها لتنساح عالميا، فأين ما يسوّغ ما يشابهها عربيا وإسلاميا وما بدأت حركة التقدم الصناعي والتقني أصلا ناهيك عن أن تنساح عالميا؟

وإن الدعوة إلى ليبرالية اقتصادية جديدة نشأت في الغرب لتصحيح مسار ليبرالي اقتصادي سابق، فأين هذا مما هو قائم في المجتمعات العربية والإسلامية؟

وقد تولد من رحم الانهيار الرأسمالي المعاصر أفكار إنقاذ غربية جديدة مبتكرة تراعي معطيات المجتمعات الغربية المعاصرة، فأين في دعوات المسيرة الليبرالية العربية من ينظر في معطيات عربية معاصرة ليبتكر أفكار إنقاذ (عربية) لها؟

التخلف والشطط في الليبرالية الفلسفية العربية

أول ما يلفت النظر من عدم استيعاب تطور الفكر الليبرالي الغربي عند ناقليه وحامليه من الليبراليين المحدثين في الساحة العربية، ما يؤخذ من كتاباتهم من ربط عضوي بين الليبرالية والديمقراطية، وادعاء استحالة تحقيق الديمقراطية (وليست هذه السطور بصدد دفاع عنها أو نقد لها) إلّا مع الليبرالية، بينما يقول "فريدريك فون حايك"، أحد أساطنة الفكر الليبرالي الغربي الجديد: (تتناول الليبرالية مهام الدولة، وعلى وجه التحديد الحدّ من سلطتها، أما الحركة الديمقراطية فتتناول السؤال: من يوجّه الدولة، فالليبرالية تطالب بالحدّ من كل سلطة، بما في ذلك سلطة الغالبية، أما النظرية الديمقراطية فتوصل إلى أن رأي الغالبية هو العنصر الحاسم في مشروعية سلطة الحكم). وما يسري على هذا الصعيد يسري على صعيد أطروحات ليبرالية عديدة أخرى، بدءا بميدان العلاقات بين الجنسين انتهاء بمسألة إلغاء مختلف الضوابط (ولا نقول القيود الجائرة) على أي إبداع فني أو أدبي أو فكري.

تساؤلات مقلوبة

أثناء حرب الفرقان (2008-2009م) في غزة تناقل كثيرون عبر الشبكة العالمية ما أطلق عليه وصف قائمة العار، التي تضم عددا من أسماء الكتاب والصحفيين الذين أوردت وزارة الخارجية الإسرائيلية أسماءهم ونماذج مما يكتبون على موقعها الشبكي، واعتبرتهم ممن يكتبون في صالح الإسرائيليين. ولا ريب أن بعضهم كان مظلوما بهذه الفضيحة إذا صح التعبير، وأن بعضهم الآخر لا يعتبر نفسه وهو يكتب إلا ممارسا لحريته في التعبير فإن توافق ذلك مع ما يعتبره الإسرائيليون خدمة لهم أو دعما لمزاعمهم فهذا شأنهم فيما يرى. ولا ينبغي للنظرة العامة من جانب العرب والمسلمين إلى هذا الكاتب أو ذاك أن تعتمد على "شهادة إسرائيلية"، فليس الإسرائيليون مصدرا موثوقا يُعتمد عليه في حق ولا باطل، حتى وإن صادف كلامهم الحقيقة أحيانا، على غرار قاعدة "كذب المنجمون ولو صدقوا".

والمفروض أن الحديث هنا عن الليبراليين العرب يدور عن "تصور" يقول أصحابه إنه فكري، يعتمدون عليه في صناعة الموقف السياسي، وليس العكس. وهنا نجد صلة الوصل مع مسألة "قائمة العار" التي أثارت حوارات شبكية مستفيضة وغاضبة، ففيها عدد من الأمور، أهمها في نطاق الموضوع المطروح هنا:

1- معظم من وردت أسماؤهم ويوجد سواهم ممن يتلاقون معهم في نوعية كتاباتهم، هم ممن يوصفون أو يصفون أنفسهم بالليبراليين العرب أو الليبراليين الجدد العرب.

2- غالبية الأسماء لصحفيين وكتّاب في وسائل إعلام من البلدان الخليجية، لا سيما السعودية والكويت، أي من منطقة الخليج المستهدفة "ليبراليا" أكثر من سواها.

3- الأهم مما تصنع وزارة الخارجية الإسرائيلية أو لا تصنع هو وجود "مراكز قوى" إعلامية، عربية اللغة والتمويل والجغرافيا -ومعظمها خليجية- تستضيف تلك الكتابات على نطاق واسع، ليس من باب حرية الرأي والتعبير، وإلا لأمكن العثور فيها على كتابات من نوعية أخرى، إنما من باب "التخصص" في نشر ما يسمى الفكر الليبرالي إن صح واستقام هذا الوصف أصلا، وما يتعلق به أو يتكامل معه من أفكار وتصورات ومعتقدات وسياسات.

ولكن ما هي هذه "الليبرالية" العربية بالمقارنة مع منبعها الغربي؟

هل توجد ليبرالية غربية، وأخرى عربية عامة وثالثة خليجية محلية؟

هل ينبغي رفضها أو القبول بها، سواء بمنظور من يعتبرها "تصورا إنسانيا شموليا" أو من يعتبرها "فلسفة غربية مستوردة"؟

هذه تساؤلات منتشرة، إنما تبدو وكأنها تضع العربة أمام الحصان كما يقال، أي تنظر في شيء وُجد بصورة من الصور وتتساءل عن التعامل معه، وتغفل عن أنّ أي نهوض مطلوب يتطلب النظر في معطيات ذاتية أولا، والسؤال عن سبل الانطلاق منها لتحقيق هدف جليل ثانيا، وبالتالي ثالثا لاستخراج معايير ومقاييس، يمكن الرجوع إليها عند النظر في أطروحات ما، من قبيل ليبرالية قديمة أو جديدة، مستوردة أو محلية!

إن قلب الموضوع رأسا على عقب على هذه الشاكلة في مسألة التعامل مع الليبرالية يسري على التعامل مع كثير من الظواهر الأخرى المشابهة، كالعلمانية والحداثة، ومصدره الأول ظاهرة نعايشها، اصطُنعت في حياتنا الفكرية، وأغرقتها -عبر فوضى المصطلحات- في دوامة.

نشوة المصطلحات

أول ما يلاحظه المرء كما هو معروف أن لفظة الليبرالية تكتب بحروف عربية دون أن يكون لها أصل لغوي اشتقاقي في اللسان العربي، فأصلها لاتيني تبعا لنشأتها الغربية الأولى، وقد نقلت بأسلوب شاع استخدامه، يعتمد على تعريب كتابة حروف اللفظة المعنية، وليس على تعريب معنى الكلمة، كما هو الحال مع ألفاظ كثيرة أخرى، بعضها يمثل مفاهيم منضبطة نسبيا لا غبار عليها مثل استراتيجية، وبعضها لا يستهان بشأن الحرص على نشره بلفظته الغربية المستعربة، مثل الإمبريقية، وهي شاهد على سواها، فالمعنى اللغوي لهذه الكلمة: "التجريبية الحسية"، وعند استخدامها بهذا اللفظ العربي في الكتابات الفكرية، يتداعى في ذهن الإنسان العربي أو المسلم تلقائيا ما يعرفه من تراثه المعرفي، ولكن ليس هذا هو المطلوب في الكتابات "التغريبية"، بل يتناقض مطلوب أصحابها مع ما يؤكده وعينا المعرفي، أن العلماء المسلمين كانوا يجرون تجاربهم الحسية العلمية في الفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها من العلوم، دون أن تنشأ لديهم أصلا أو في المجتمع الحضاري الإسلامي الذي نشؤوا فيه واشتغلوا من أجله، مشكلةٌ ما بصدد ما يقال "حداثيا" بأسلوب تعميمي عن تناقض مزعوم بين العلم والدين!

أما "إمبريقية" الحداثيين ففيها ما يتجاوز معنى الاعتماد في العلم على "التجربة الحسية العلمية"، إذ أضافوا إلى ذلك تحت عنوان المذهب الإمبريقي مزاعم تقول إن هذا هو المصدر "الوحيد" للوصول إلى الحقائق، أي أنكروا الوحي مصدرا للعلم:

1- في العلوم التجريبية، وهذا ممّا قال به الغربيون لينتشلوا العلوم من استبداد كنسي

2- وأضيف إلى ذلك: وفي العلوم الإنسانية، وهذا ممّا قال به الناقلون المقلدون، لينتشلوا تأثير الإسلام وضوابطه في المجتمع الإسلامي، وإن لم يضع حاجزا في وجه التطور العلمي بالتجربة الحسية!

هنا -وعلاوة على مفعول عنصر "الانبهار" في النقل والتقليد- يأتي استخدام الكلمة بلفظتها الأجنبية لتجنّب الصدمة الأولى مع الوعي المعرفي للإنسان العادي والإنسان المثقف في الدائرة الحضارية الإسلامية، فإذا وجد ما يقال بألفاظ غريبة، بعيدا عن نقطة التصادم، قبولا تدريجيا لدى المستهدَفين بتلك الكتابات، لا سيما جيل الشبيبة، أمكن التسلل بالمزيد عبر طرح المضامين المقصودة، أي بعد أن يصبح استخدام الألفاظ المعبرة عنها "اعتياديا" في الأذهان، بعد الأقلام والألسنة.

نجد هذه الممارسة مقصودة عند سعاة البريد الفكري التغريبي، ومَن قد يقلدهم دون قصد، وعلى من يريد أدلّة ما أن ينظر في بعض الكتابات الحداثية، فليتأمّل فيها وليتساءل عن مدى الضرورة الموضوعية من وراء مفرداتٍ ترد فيها بكثرة مفرطة، من قبيل: "ميتافيزيقي، أنثروبولوجي، إبستمولوجي، بروميثيوثي، كوسموبوليتي، هرمينوطيقا، سيميوطيقا.."!

للمشكلة جوانب عديدة أخرى، منها استحالة تعريب مصطلح أجنبي تعريبا قويما بمجرّد كتابة اللفظة الأجنبية أو نطقها بحروف عربية، ومنها أيضا أنّ الكاتب الذي يتوهم أنه يعيش في "برج عاجي"، ينتظر من عامّة القراء أن يحمل كلّ منهم تحت إبطه عدّة معاجم وقواميس، ليفهم ما يخاطبهم به من خارج دائرتهم المعرفية، أو أنّه لا يخاطب عامّة القرّاء أصلا، وذاك أدهى فالنهوض لا تصنعه "نخبة" بل يصنعه مجتمع بأكمله، أما الأمرُّ منه (وهنا بيت القصيد) فهو وجود مَن يريد أن ينسلخ القارئ العربي من جلده ليستوعب -عبر المستهجَن من الألفاظ والغريب من المصطلحات- ما يراد صبّه صبّاً في عقله وقلبه وذوقه من القيم المستوردة، وليس من العلوم والتقنيات فحسب، فهذه إرث بشري مشترك لا يمكن احتكاره، وينتقل عبر عصور التاريخ من حضارة إلى حضارة، منذ العصر الحجري إلى عصر العالم الافتراضي، وهذا مع اختلاف حاضنة وعاء القيم الذي يعطي الحضارة وجها مشرقا أو كالحا!

إضافة إلى ما سبق: لعلّ مِن الكتّاب مَن يريد استثارة إعجابٍ مصطنع لدى القارئ، ممزوجٍ بالرهبة تجاه علوّ كعب(!) صاحب القلم، المبدع في عالم اللغة والتعبير، وتجاه سعة أفقه في عوالم الفلسفة والثقافة؛ قد يوجد مَن يظنّ حقيقةً أنّ هذا الانطباع الزائف المصطنع يوصل إلى الاقتناع تسليماً لا تفكيرا، بالمضمون المنحرف دون استيعابه، ولا يستوعب ذلك الصنف من الكُتّاب أن النصّ الغريب المعوجّ يشكل حاجزا بين كاتبه وقارئه، ناهيك عن سبك العبارات سبكا يتفنّن صاحبه في التصنّع والتنطّع والتعقيد فيه، وتغتال صياغتُه تواضعَ العلم اغتيالا، بسكّين تعالي معلّمٍ شاخَ وشاخ علمه على تلاميذ صغار بين يديه، وبخنجر التكبّر اعتدادا بالنفس وتعصّبا.

وما أجمل وأقوم قول علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ((حدّثوا الناس بما يعرفون)) -صحيح البخاري / كتاب العلم- وقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ((ما أنت محدّث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم فتنة)) -صحيح مسلم / المقدّمة-

أما إن أراد مستخدمو تلك الألفاظ "مصدرا" يميلون هم إليه فليرجعوا مثلا -والأمثلة كثيرة- إلى كلمات جميلة تُنسب إلى الفيلسوف الملحد الألماني شوبنهاور، منها:

"إذا أردت إلقاء خطبة ناجحة، استخدم كلمات مألوفة، لقول الأشياء غير المألوفة".

"الذين يؤلّفون خطبا صعبة، مظلمة، معقّدة، مزدوجة المعنى، لا يعلمون على التحقيق كيف يقولون ما يريدون قوله، إنّما لديهم وعي ضبابيّ يصارع حول فكرة ما. ولكن كثيرا ما يريدون أن يواروا عن أنفسهم وعن الآخرين، عدمَ وجود شيء لديهم ليقولوه".

نعود إلى الموضوع الأصلي بعيدا عن ظلمة دوامة المصطلحات هذه:

ألا يلفت النظر انتشار ظاهرة حشد كلمات غربية الأصل واللفظ والمعنى حشدا، في الكتابات الموصوفة بالليبرالية والمنسوبة إلى الليبراليين العرب، دون ضرورة غالبا، وربما دون استيعاب مستخدميها لمعانيها الأصلية لدى مبتكريها من قدماء الغربيين وبعض المحدثين من فلاسفتهم؟

ألا يملك هؤلاء "المبدعون" بزعمهم القدرة على نحت مصطلحات عربية جديدة مقبولة، وقد كان أول من ابتكر المصطلحات علماءُ عرب ومسلمون وكانوا يطلقون عليها تعبير "المواضعة" أي ما تواضع العلماء والمتخصصون على تعريف مضمونه؟

الحرية فوق الليبرالية

من باب المشاكلة ينبغي استخدام كلمة "الليبراليين" في وصف من يقول عن نفسه إنّه منهم، فهذا أولى من وصفهم بما شاع من ترجمات عربية للكلمة تربطها بكلمة الحرية، لمجرد أن أصل اللفظة اللاتيني يعني "الحرية".

والواقع أن كلمة الحرية باللغة العربية، والتي يربط الليبراليون ليبراليتهم بها، أكبر منها ومما يطرحونه من خلالها بكثير، فالحرية حق إنساني أصيل، يولد بولادة الإنسان، ويرافقه حتى مماته، فلا ينبغي استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا، ولو بمجرد التكبر أو الإيذاء اليدوي، ناهيك عن حجر الكلام والرأي والعمل والرزق وسوى ذلك، فهذا كله من حقوقه الأصيلة، التي لا يجوز حجرها عليه بسبب معتقده أو تصوره أو موقعه الاجتماعي ناهيك عن لون بشرته أو جنسه أو ما شابه ذلك من الأسباب، وخالق البشر والأسباب يقول:

{كُلاًّ نُمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} -الإسراء: 20- ويقول:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} -الحجرات:13- ويقول:

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}-الإسراء: 70-

ويلفت النظر في هذه الآيات الكريمة وكثير سواها التأكيد على عنصر الجماعة وعنصر الفرد معا، على النقيض من الفكر الليبرالي الذي جنح منذ نشأته الأولى إلى إبراز عنصر "الفرد" على حساب عنصر الجماعة، فجنحت تطبيقاته الكبرى على حساب الفرد والجماعة والبشرية معا، كما كان على امتداد مسيرة "الرأسمالية الامبريالية" القديمة والحديثة، وعولمتها حربا وقسرا واستغلالا، وانهيار بنيانها عام 1929م وعام 2009م مع العجز عن رؤية حلول خارج إطارها، فإن أمكن إنقاذ ما يمكن إنقاذه مرة أخرى، سيتكرر الانهيار مرة ثالثة.

بين حرية الفكر وانفلات الغريزة

لعل جوهر مشكلة الليبراليين العرب أنهم وضعوا أنفسهم في قفص الانحرافات التي مالت بإنجازات الغرب في اتجاه قضى على القويم من قديم أفكارهم وأطروحاتهم من عصر النهضة الإنسانية والتنوير..

بدءا بدعوات الإلحاد التي قضت على دعوات التحرر من "سطوة الاستبداد" الكنسي...

انتهاء بدعوات الانحلال الجنسي، التي قضت على دعوات تحرير "الكرامة" الإنسانية.

وبين هذا وذاك أصبح استهداف الإسلام بالذات عند الليبراليين العرب ظاهرة "مرضية"، لا يستطيع أصحابها استيعاب أنه هو الذي يرفض سطوة الاستبداد بمختلف أشكاله، ويعطي الكرامة الإنسانية مكانة الصدارة، فلو صح استخدام تعبير "الليبرالية" المستورد، فمن يدعو إلى الإسلام أكثر ليبراليةً بالمقياس الغربي للكلمة من أدعياء الانتساب إلى ليبرالية الغرب في ليبراليتهم العربية.

لعل جوهر أخطاء مسيرة الليبرالية العربية، أن تشبثها بتقليد القشور وليس تقليد الجوهر، قد انحرف بها حتى في تقليد "المواقف" كما يؤخذ من المثال الوارد آنفا عن التعامل مع حرب الفرقان في غزة، لمجرد بروز عنصر مفعول الإسلام في المقاومة، ناهيك عمّا لا يُحصى من الأمثلة الأخرى للتعامل مع قضايا مصيرية كقضية فلسطين، ومستقبلية كقضية التحرر والتقدم، واجتماعية على المستوى القطري كما هو الحال مع واقع الليبراليين في دول الخليج وسواها.

أين يكمن "تقليد الجوهر" القويم بدلا من تقليد القشور المنحرف؟

إن نهوض الغرب من ظلمات عصوره الوسيطة كان اعتمادا على منظومة قيم دعا إليها عدد من مفكريه الأوائل من قبل حلول القرنين الميلاديين الرابع عشر والخامس عشر بعد الاحتكاك الأوروبي بمواطن الحضارة الإسلامية ما بين قرطبة وبغداد، ثم انحرف بها فلاسفة آخرون لاحقا، لا سيما في القرنين الميلاديين التاسع عشر والعشرين.

وقد أخذ المفكرون الأوروبيون الأوائل ما أخذوه من معين الحضارة الإسلامية من القيم، وعملوا على "أوروبته" بربطه ما أمكن ذلك بتراث إغريقي قديم..

ولم يصل المفكرون الأوروبيون المحدثون حتى اليوم إلى حلول للمشكلات التي صنعتها الحضارة المادية بعد انحرافها عن جوهر كلمة "الحضارة" القائم على إنسانية الإنسان، حتى أصبحت حافلة بمخاطر لا تحصى على نفسها ومجتمعاتها وعلى الإنسان وعلى الأسرة البشرية.

وإن نهوض العرب والمسلمين الآن منوط بظهور فكر قويم يركز على منظومة قيم، لا يحتاج فيها إلى "استيراد.. ثم ربط بتراث ذاتي"، كما صنع الأوروبيون، فلديه ما يكفيه لمنظومة القيم المحررة والحاضنة للنهوض والتقدم، من تراثه المعرفي الحضاري الذاتي، وجل ما يمكن أن يستفيده من المسيرة الغربية، الفكرية والمادية، هو ألا يكرر أخطاءها الفادحة الظاهرة للعيان.

هذا بالذات ما لا تحمله أطروحات الليبرالية العربية المعاصرة إن صح وصفها بذلك، ولا يمكن أن يسري عليها عند مقارنتها بمسيرة الليبرالية الغربية، فهي عالة عليها، بل على إفرازاتها الجانبية وشطحاتها المادية، وكل تقليد يتحول إلى موقع "العالة" ما دام المقلدون ينقلون الفكر ولا يفكرون، وتحكمهم الغريزة الفردية أكثر مما تحكمهم احتياجات الإنسان أو الحريات والحقوق الإنسانية الفردية.

نبيل شبيب